

الكلام في ماهية الحب

الحب أعزك الله - أوله هزل وآخره جد . دَقَّتْ معانيه لجلالتهَا عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ، ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ؛ منهم باندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، والحكم بن هشام . وعبد الرحمن ابن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتنانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه ، وعن جميعهم ، وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها^(١) ، ومثل هذا كثير . ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين ، وإنما هوشىء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم - لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل .

وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يُحصَوْا . وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر ، عبد الملك بن أبي عامر بواجده ، بنت رجل

(١) يشير ابن حزم في هذه الفقرة إلى جانب من الحياة العاطفية لأمرء الأندلس وخلفائه :

- عبد الرحمن الداخل ، وحكم من ٧٥٥ إلى ٧٨٨ م ، وكان مغزماً بحارية نسي دعجاء .
- الحكم بن هشام ، وحكم من ٧٩٦ إلى ٨٢١ م .
- عبد الرحمن بن الحكم ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط ، وحكم من ٨٢١ إلى ٨٥٢ م ، وشهر بحب جارية طروب ، ولعبت دوراً هاماً في الحياة السياسية على أيامه . وإليها ينسب مسجد بصدر الربض الغربي ، وقد أورد لها ابن الأثير ترجمة كاملة في كتابه التكملة .
- محمد بن عبد الرحمن ، وحكم من ٨٥٢ إلى ٨٨٦ م ، وكان يحب جارية تدعى غزلان .
- الحكم المستنصر ، وحكم من ٩٦١ إلى ٩٧٦ م ، وأحب جارية من منطقة الباسك (البشكنس في المصادر العربية القديمة) ، شال شرق إسبانيا ، تدعى صبح ، وهو الترجمة العربية لاسمها الأصلي Aurora ، وتمتعت بنفوذ قوى في الحياة العامة ، وربطها بالمصور بن أبي عامر ، وهو موظف في القصر ، صلة عاطفية عنيفة ، فيما يرجح ، وكانت وراء ما بلغه من جاه وسلطان ، وهي أم الخليفة هشام المؤيد بالله .
- هشام المؤيد بالله ، وتولى الحكم مرتين من ٨٧٦ إلى ١٠٠٨ م ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ م .

من الجنائين حتى حملهُ حبّاً أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامين
الوزير عبد الله بن مسلمة . ثم تزوّجها بعد قتل رجل من رؤساء البربر (٢) .

وما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني أخبرني : أن نزار بن معد
صاحب مصر لم ير ابنة منصور بن نزار ، الذي ولي الملك بعده وأدعى الإلهية ،
إلا بعد مدة من مولده ، مساعدة لجارية كان يُحبها حباً شديداً ، ولم يكن له ذكر ،
ولا من يرث ملكه ويحيى ذكره سواه (٣) .

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية ، والأزمان القديمة ، من قد استغنى
بأشعارهم عن ذكرهم : وقد ورد من خبر عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

(٢) هذه الفقرة جاءت مضطربة تماماً في المخطوط وفي كل الطبقات العربية ، فقد وردت على النحو
التالي : . . . من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحد ، بنت رجل من الجنائين ، حتى حمته حباً
أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامين الوزير عبد الله بن مسلمة . . . وقد صححها لي بروفنسال
على النحو الذي أوردناه . وكان الحق معه ، فكلمة « المظفر » لقب لعبد الملك بن أبي عامر وليست اسماً لابن له ،
وكانت حبيته بنتاً لجنان ، أي بستاني ، وليس لجيا ، والذي خلف عليها هو الوزير عبد الله بن مسلمة بعد فناء
دولة المنصور بن أبي عامر وأولاده ، فليس للوزير عبد الله ولد اسمه عامر ، واسم الجارية واحد وليس « واحد » .
والمظفر خلف أباه المنصور ، بعد موته ، وكان مثله حاجباً بالاسم ، وحاكماً بالفعل ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م .
انظر :

- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٣ ص ٣ وما بعدها طبعة لي بروفنسال .
- المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ٤٠٠ .
- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٠ ، تحقيق محمد سعيد الريان ، الطبعة
الأولى ، القاهرة ١٣٦٨ - ١٩٤٩ م .

والوزير عبد الله بن مسلمة كان متقلد مدينة الزاهرة في قرطبة ، أيام حجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ،
الملقب بشنجل ، وقد ولها بعد وفاة أخيه المظفر عام ١٠٠٨ م ، وكان مجرداً من المواهب فاغتيال في قرطبة
بعد شهر من توليه الحجابة ، في ٤ مارس ١٠٠٩ ، وقد شارك عبد الله بن مسلمة بخط وأفر في أحداث هذه
الفترة . انظر :

- ابن عذارى : المغرب ، ج ٣ ص ٣٨ وما بعدها .
- ابن الأبار : الحلة السيرة ، طبعة القاهرة ، ج ١ ص ٢٧٠ وما بعدها .
- (٣) نزار بن معد ، خليفة مصر الفاطمي ، الملقب بالعزيز ، وحكم من ٩٧٦ إلى ٩٩٦ م ، وأما المنصور
ابنه ، فهو ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله ، وحكم من ٩٩٦ إلى
١٠٢١ ، انظر :

- بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٥٤ وما بعدها .
- علي إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ، ط الثانية ، ص ١٠٦ وما بعدها ، القاهرة ١٩٤٩ .

وشعره ما فيه الكفاية . وهو أحد فقهاء المدينة السبعة^(٤) ، وقد جاء من فتيا ابن عباس رضي الله عنه مالا يُحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قود . وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكرّم مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقرّ عالمها العلوي ، وبجوارتها في هيئة تركيبها^(٥) .

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ، وللمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر في الأضداد ، والموافقة في الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا ، فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسنّخها المهيأ لقبول الانفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » فجعل علة السكون أنّها منه .

ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثّر الأدنى ويعلم فضل غيره ، ولا يجد محيداً لقلبه عنه . ولو كان للموافقة في الأخلاق لَمَا أحب المرء من لا يساعده ولا يوافق . فعلمنا أنه شيء في

(٤) فقهاء المدينة السبعة : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن ياسر ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبد الله ابن عتبة بن مسعود الوارد في النص . انظر :

• ابن رشيح القيرواني : العدة في صناعة الشروئ نقد ، الطبعة الأولى ، ص ١٨ ، القاهرة ١٣٤٤ - ١٩٢٥ م .
 (٥) أبو بكر محمد بن داود الظاهري ، ابن مؤسس المذهب الظاهري ، ولد عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م ، وتوفي ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م ، ألف كتاب « الزهرة » ، وقد نشر لويس نيكل وإبراهيم طوقان نصفه عن مخطوطة وحيدة في دار الكتب المصرية ، عام ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، والفقرة الوازدة هنا اقتبسها ابن حزم من كتاب الزهرة ص ١٥ ، ونصها هناك :

« وزعم بعض المتألفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدوّرة الشكل ، على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً ، فجعل في كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه ، كان بينهما عشق للنسابة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس في ذلك على حسب رقة طبائعهم » .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٨٩ .

ذات النفس ، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفتى بفناء سببها .
فمنْ وَدَّكَ لِأَمْرٍ وَلَّى مَعَ انْقِضَائِهِ .
وفي ذلك أقول :

وِدَادِي لَكَ الْبَاقِي عَلَى حَسَبِ كَوْنِهِ تَنَاهَى فَلَمْ يَنْقُصْ شَيْءٌ وَلَمْ يَزِدْ
وَلَيْسَتْ لَهُ غَيْرُ الْإِرَادَةِ عَلَّةٌ وَلَا سَبَبٌ حَاشَاهُ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ
إِذَا مَا وَجَدْنَا الشَّيْءَ عَلَّةً نَفْسِهِ فَذَلِكَ وَجُودٌ لَيْسَ يَفْنَى عَلَى الْأَبَدِ
وَإِنَّمَا وَجَدْنَاهُ لَشَيْءٍ خِلَافَتِهِ فَأَعْدَامُهُ فِي عَدَمِهَا مَالُهُ وَجَدْ

ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضروب : فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل ، إما لاجتهاد في العمل ، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب ، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسريحتهم عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس .

وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، زائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فائرة ببعدها ، حاشى محبة العشق الصحيح الممكن من النفس ، فهي التي لا فناء لها إلا بالموت .

وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه ، وذا السن المتناهية ، إذا ذكرته تذكر وارتاح وصبا ، واعتاده الطرب ، واحتاج له الحنين ، ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة ، من شغل البال والخلل والوسواس ، وتبدل الغرائز المركبة ، واستحالة السجاياء المطبوعة ، والنحول والزفير ، وسائر دلائل الشجاء ما يعرض في العشق ، فصح بذلك أنه استحسان رُوحاني وامتزاج نفسي .

فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية ، إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحفظهما واحد . فالجواب عن ذلك أن نقول : هذه لعمري معارضة صحيحة ، ولكن نفس الذي لا يحب منْ يحبه مكتشفة الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم تحس بالجزء الذي كان متصلا بها قبل حلولها حيث هي ، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة . ونفس

الحب متخلصة عامة بمكان ما كان يشركها في المجاورة ، طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها ، كالمغناطيس والحديد ، بقوة جوهر المغناطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكّمها ، ولا من تصفيّتها ، أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس ، تطلب ما يشبهها ، وتنقطع إليه ، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة ، وبالاختيار والتعمد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب ، إذ لم يبلغ من قوته أيضاً مغالبة المسك له ممّا هو أقوى منه . ومنى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض ، واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمتى عظم جرم المغناطيس ، ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد ، عادت إلى طبعها المعهود .

وكالتار في الحجر . لا تبرز على قوة النار في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ، ومجاورة الجرمين بضغطهما واصطكاكهما ، وإلا فهي كامنة في حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابّان إلا وبينهما مشاكلة ، واتفاق الصفات الطبيعية ، لا بد من هذا وإن قلّ ، وكلّما كثرت الأشباه زادت المجانسة ، وتأكدت المودة ، فانظر هذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : «الأرواحُ جنودٌ مُجنّدةٌ ما تعارفَ منها ائتلفَ ، وما تناكرَ منها اختلفَ » ، وقول مروى عن أحد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما اغتم إيقراط حين وُصفَ له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه^(٧)

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذي كان يتولّى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برىء فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمري مالى

(٧) إيقراط Hippocrate (٤٦٠ - ٣٧٧ ق م) ، طبيب إغريق ، من أشهر أطباء العصر القديم ، ويدعى أبا الطب ، ولم يمتد أحد من الباحثين إلى مصدر الفقرة التي أوردها ابن حزم منسوبة إلى إيقراط .

إليه سبيل ، غير أني أجد لنفسي استقلالاً لا أدرى ما هو . فادّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش في نفسي وأخلاقى شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها . فنظرت في أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميزت هذا الطبع في ، فما هو إلا أن حرّكت هذه الموافقة ، وقابلت نفسه بهذا الطبع الذي بنفسى ، فأمر باطلاقى وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد في نفسي له^(٨) .

وأما العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء حسن ، وتميل إلى التصاوير المثقنة ، فهي إذا رأت بعضها تنبت فيه ، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحّت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة ، وإن للصور لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس الناقية^(٩) .

وقرأت في السفر الأول من التوراة أن النبي يعقوب عليه السلام أيام رعيه غنماً لابن خاله ، مهراً لابنته شارطه على المشاركة في إنساها ، فكل بهم ليعقوب . وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع في الماء الذي ترده الغنم ، ويتعمّد إرسال الطروقة في ذلك الوقت فلا تلد ، إلا نصفين ، نصفاً بهماً ونصفاً غراً^(١٠) .

وذكر عن بعض القافة انه أتى بابن أسود لأبيضين ، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غير شك ، فرغب أن يوقف على الموضع الذي اجتماعا عليه ، فأدخل البيت الذي كان فيه مضجعهما ، فرأى فيما يوازي نظر المرأة صورة أسود في الحائط فقال لأبيه : من قبل هذه الصورة أتيت في انك .

وكثيراً ما يصرف شعراء « أهل الكلام » هذا المعنى في أشعارهم ، فيخاطبون

(٨) أيضاً لم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر هذه الفقرة التي أوردها ابن حزم منسوبة إلى أفلاطون .

(٩) تردد هذه الفكرة كثيراً في الشعر الإيطالي ، على امتداد القرن الثالث عشر الميلادي ، وأثارت انتباه النقاد لكن أحداً لم يدرسها في إطار مقارنة مع فكرة ابن حزم . انظر :

* Nardi B. : Dante e la cultura medievale, p. 4 ss., Bari 1942.

(١٠) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الثلاثون ، والقصة في التوراة طويلة ذات تفاصيل ، ولكنها تتفق في خطوطها الرئيسية مع ما أورده ابن حزم .

المرئي في الظاهر خطاب المعقول الباطن ، وهو المستفيض في شعر النظام إبراهيم
ابن سيار^(١١) وغيره من المتكلمين .

وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علة النَّصْرِ في الأعداء تعرفها
إلا نزاعُ نفوسِ الناسِ قاطبةً
من كنتَ قدامه لا يثنى أبداً
ومن تكن خلقه فالنفسُ تصرفه
ومن ذلك أقول :

أمن عالم الأملاك أنت أم أنسى
أرى هيئة إنسيّة غير أنه
تبارك من سوى مذاهب خلقه
ولا شكّ عندى أنك الروح ساقه
عدمنا دليلاً في حدوثك شاهداً
ولولا وقوع العين في الكون لم نقل
وكان بعض أصحابنا يُسمي قصيدة لي « الإدراك المتوهم » منها :

تري كلّ ضدٍّ به قائماً
فيايها الجسم لا إذا جهاتٍ
نقضت علينا وجوه الكلام
فما هو مدّ لُحتٍ بالمستبان

وهذا بعينه موجود في البغضة . ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى . ولا علة
ويستقل بعضهما بعضاً بلا سبب .

والحب - أعزك الله - داء عياء . وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام
مستلذ ، وعلّة مشتبهة . لا يودّ سليمها البرء . ولا يتمنى عليها الإفاقة . يُزِنُّ للمرء ما كان

(١١) النظام ، إبراهيم بن سيار ، توفى حوالى سنة ٨٤٥ م ، وكان رأس المعتزلة في البصرة ، وأستاذ الجاحظ ،
وحاول أن يقاوم الميل التنريّة الفارسية في الإسلام ، وأعلن أن الشك هو أول وأهم ما تتطلبه المعرفة ، وشبه نظريته
هذه في أساسها نظرية الفيلسوف الإغريق Anaxajoras ، وعاش بين ٥٠٠ و ٤٢٨ قبل الميلاد . انظر :
• أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ٣ ص ١٠٦ وما بعدها ، ط ٣ ، القاهرة ١٣٦٢ - ١٩٤٣ م .

يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعبُ عنده ، حتى يحيل الطباع المركبة ،
والجبلّة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصاً في باب إن شاء الله .

« خبر :

ولقد علمت قتي من بعض معارف قد وجلّ في الحب ، وتورّط في حبائله ،
وأضرّ به الوجد ، وأنصحه الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عز وجل
في كشف ما به ، ولا ينطق به لسانه ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن من يحب ،
على عظيم بلائه وطويل همّه ، فما الظن بسقيم ولا يريد فقد سقمه . ولقد جالسته
يوماً فرأيت من إكبابه ، وسوء حاله وإطراقه ما ساءنى ، فقلت له في بعض قولي :
فرج الله عنك ، فلقد رأيت أثر الكراهية في وجهه .

وفي مثله أقول من كلمة طويلة :

وأستلذُّ بلائى فيك يا أملى ولستُ عنك مدى الأيام أنصرفُ
إن قيل لى أتسلى عن مودته فما جوابى إلا اللام والألف

« خبر :

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد
القرشى ، المعروف بالشبانسى^(١٢) من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية^(١٣) ،
أنه لم يحب أحداً قط ، ولا أسف على ألف بان منه ، ولا تجاوز حد الصّحبة والألفة
إلى حد الحب والعشق منذ خلق .

(١٢) ترجم له الضبي في كتابه : « بغية المتنمى » ، رقم ١٢٩٦ ، وقال إنه شاعر أديب ، وكان لابن حزم
صلة به . وورد في كل طبقات الطرق العربية « المعروف بالشلى » وهو خطأ ، وقد صححناه عن « البغية » .
ونعرف من أقربائه معاوية بن هشام بن محمد ، ويعرف بابن الشبانسى ، وكان مثله أديباً إخبارياً تاريخياً
فصيحاً ، وله تاريخ في دولة قومه بنى مروان ، وتأليف في نسب العلوية وغيرهم من قریش سماه : « التاج السنى
في نسب آل على » ، وينقل عنه ابن حيان كثيراً في مؤلفاته . ونلتقى بلقبه تحت صور أخرى مثل الشينسى ،
أو الشبانسى . انظر :

- ابن حيان : المتنمى ، القطعة التى نشرها منشور أنطونيا ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٨ .
- والقطعة التى نشرها الدكتور محمود على مكى في أمكنة كثيرة .
- ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ص ١٠٧ ، نشر محمد عبد الله عنان .

(١٣) الأمير الأموى ، هشام الأول ، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الداخل ، انظر الهامش

رقم ١ في هذا الباب .

باب علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويبتدى إليها الذكى .
 فأولها إدمان النظر ، والعينُ بابُ النفس الشارِع ، وهى المنقبة عن سرائرها ،
 والمعبرة لضمائرها ، والمعربة عن بواطنها ، تترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ،
 ويتزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس .
 وفى ذلك أقول شعراً منه :

فليس لعينى عندَ غيركِ موقف كأنك ما يحكون من حجر البَهِتِ
 أُصَرِّفُها حيث انصرفت وكيفما تَقَلَّبْتُ كالمنعوت فى النَّحو والنَّعْتِ
 ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعدد ذلك ،
 وإن التكلُّف ليستين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدَّث ، واستغراب كل
 ما يأتى به ولو أنه عين المحال وخرق العادات ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن
 ظلم ، والشهادة له وإن جار ، وإتباعه كيف سلك ، وأى وجه من وجوه القول تناول .
 ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه ،
 وإطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، [والزهد فيها ، والرغبة عنها] ، والاستهانة
 بكل خطب جليل داع إلى مفارقتها ، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه .
 وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنكِ لم أُمسِر إلا مَشَى عان يُقَادُ نحوَ الفناءِ
 فى مجئى إليك أحتسُّ كالبدر إذا كان قاطعاً للسماءِ
 وقيامى إن قمتُ كالأنجم العا لية الثابتات فى الإبطاءِ
 ومنها بهت يقع ، وروعة تبدو على الحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطلوعه بغتة .
 ومنها اضطراب يبدو على الحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع
 اسمه فجأة .

وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأْتُ عَيْنَايَ لَا بَسَّ حُمْرَةٍ تَقْطَعُ قَلْبِي حَسْرَةً وَتَنْطَرُ
غَدَا لِدِمَائِ النَّاسِ بِاللَّحْظِ سَافِكًا وَضَرَجَ مِنْهَا ثَوْبُهُ فَتَعَقَّرَا

ومنها أن يجمود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسمى في حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويُرَغِّبَ في نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وبجاهل تأدب ، وتَقِلُّ (١) تزيّن ، وفقير تجعل ، وذى سن تفتى ، وناسك تفتك ، ومصون تبدل . وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه . وتوقد شعله . واستطارة لهب . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا ، والأعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارا .

ولى أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات ، منها :

أهوى الحديث إذا ما كان يُدْكَرُ لِي فِيهِ وَيَعْبَقُ لِي عَنْ غَيْرِ أَرْجِ
إِنْ قَالَ لَمْ أَسْمَعْ مِنْ يُجَالِسُنِي إِلَى سِوَى لَفْظِهِ الْمُسْتَطَرَفِ الْغَنَجِ
وَلَوْ يَكُونُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَعِي مَا كُنْتُ مِنْ أَجْلِهِ عَنْهُ يُنْجَرُجِ
فَإِنْ أَقَمَ عَنْهُ مُضْطَرًا فَإِنِّي لَا أَزَالُ مُلْتَفِتًا وَالْمَشْيُ مَشْيُ وَجِي
عَيْنَايَ فِيهِ وَجِسْمِي عَنْهُ مَرْتَحِلُ مِثْلُ ارْتِقَابِ الْغَرِيقِ الْبَرِّ فِي اللَّجَجِ
أَعْصُ بِالمَاءِ إِنْ أَذْكَرْتُ نَاعِدُهُ كَمَنْ تَنَابَعَ وَسْطَ النِّقَعِ وَالْوَهَجِ
وَإِنْ تَقُلْ : مُمَكِّنْ قَصْدُ السَّمَاءِ أَقْلُ : نَعَمْ وَإِنِّي لِأَدْرِي مَوْضِعَ الدَّرَجِ

ومن علاماته وشواهد الظاهرة لكل ذى بصير الانبساط الكثير الزائد ، والتضابق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما . وكثرة الغمز الخفي . والميل بالانكفاء ، والتعمد لمس اليد عند المحادثة ، ولس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة . وشربُ فضلة ما أبقي المحبوب في الإبقاء ، وتحرى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة . وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة ، والأسباب

(١) فى كل الطبقات العربية « تفل » ، ولم يقف عندها أحد من الناشرين العرب ، أو من الذين ترجموا الطوق إلى اللغات الأجنبية . وكان غريبة غويث الوحيد الذى رجح أن تكون « تفر » . وربما كان ذلك أقرب إلى الصواب ، لأن « تفل » معناها : المتغير الريح ، أما « تفر » فمعناها : اتسخ ، والتافر الرجل الوسخ .

المحرّكة ، والخواطر المهيّجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادّها ، ووقفت في انتهاء حدود اختلافها ، تشابهت ، قدرة من الله عزوجل تضل فيها الأوهام ، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد فعل فعل النار . ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثّر واشتد أسأل الدمع من العينين . وهذا في العالم كثير .

فنجد المحبين إذا تكافيا في المحبة ، وتأكدت بينهما تأكيداً شديداً ، أكثر بهما جدّهما بغير معنى ، وتضادّهما في القول تعمداً ، وخروج بعضهما على بعض في كل سير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه ، وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقد كل واحد منهما في صاحبه .

والفرق بين هذا وبين حقيقة المحبة والمضادة المتولّدة عن الشحنة ومخارجه التشاجر سرعة المرضى : فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا يقدر ، يصلح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد في الزمن الطويل ، ولا ينجر عند الحقود أبداً ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصّحبة ، وأهدرت المعاتبه ، وسقط الخلاف ، وأنصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضحكة والمداعبة . هكذا في الوقت الواحد مراراً . وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالّجك شك ، ولا بدخلتك ريب البتّة ، ولا تمار في أن بينهما سرّاً من الحب دفيناً ، وأقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف . ودونكها تجربة صحيحة . وخبرة صادقة . هذا لا يكون إلا عن تكلف في المودة واتلاف صحيح ، وقد رأيته كثيراً .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام في أخباره ، ويجعلها همّجيره ، ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها . ولا ينهيه عن ذلك تخوّف أن يقطن السامع . ويفهم الحاضر ، وحك الشيء يُعمى ويصم . فلو أمكن ألا يكون حديث في مكان يكون فيه إلا ذكر من يحبه لما تعدّاه .

ويعرض للصادق المودة أن يتبدى في الطعام ، وهو له مُشتهٍ، فما هو إلا وقت ما تحتاج له من ذكر من يحب ، صار الطعام غصّة في الحلق ، وشجى في المرء ، وهكذا في الماء وفي الحديث ، فإنه يفاتحه مبهجاً ، فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ، فتستبين الحوالة في منطقته ، والتقصير في حديثه ، وآية ذلك

الْجُجُمُ وَالْإِطْرَاقُ ، شِدَّةُ الْإِنْفِلَاقِ ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ طَلَّقَ الْوَجْهَ ، خَفِيفُ الْحَرَكَاتِ ، صَارَ مُنْطَبِقاً مُتَاقِلًا ، حَاطَرِ النَّفْسِ ، جَامِدِ الْحَرَكَةِ ، يَبْرُمُ مِنَ الْكَلِمَةِ ، وَيَضْجَرُ مِنَ السَّوَالِ .

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد . ونحولُ الجسم دون حد يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشى . دليلٌ لا يكذب ومُخبر لا يخون ، عن كلمة في النفس كامنة .

والسهر من أعراض المحبين . وقد أكثر الشعراء في وصفه ، وحكوا أنهم رُعاة الكواكب ، وواصفو طول الليل ، وفي ذلك أقول . وأذكر كتمان السر ، وأنه يُتوسَّم بالعلامات :

تَعَلَّمَتِ السَّحَابُ مِنْ شَوَرِي	فَعَمَّتْ بِالْحَيَا السَّكْبَ الْهَتُونِ
وَهَذَا اللَّيْلُ فَيْكَ غَدَا رَفِيقِي	بِذَلِكَ أَمْ عَلَى سَهْرِي مُعْنِي
فَإِنْ لَمْ يَنْقُصِ الْإِظْلَامُ . (٢)	أَلَا مَا أَطَقْتُ نَوْمًا جُفُونِي
فَلَيْسَ إِلَى النَّهَارِ لَنَا سَبِيلُ	وَسَهْدُ زَائِدٍ فِي كُلِّ حِينِ
كَأَنَّ نَجْمَ الْغَيْمِ يُخْفِي	سَنَاها عَنْ مُلَاحَظَةِ الْعُيُونِ
ضَمِيرِي فِي وِدَادِكَ يَا مُنَايَا	فَلَيْسَ بَيْنُ الْإِلَّ بِالظُّنُونِ
وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ قِطْعَةٌ مِنْهَا :	

أَرَعَى النُّجُومَ كَأَنِّي كَلَّفْتُ أَنْ	أَرَعَى جَمِيعَ ثُبُوتِهَا وَالْخُنْصِ
فَكَأَنَّهَا وَاللَّيْلُ نِيرَانُ الْجَوِي	قَدْ أَضْرِمْتُ فِي فِكْرِي مِنْ حِنْدِسِ
وَكَأَنِّي أَمْسَيْتُ حَارِسَ رَوْضَةٍ	خَضْرَاءَ وَشَّعْ نَبْهَا بِالرَّجَسِ
لَوْ عَاشَ بَطْلِيمُوسُ أَيقِنَ أَنِّي	أَقْوَى الْوَرَى فِي رُصْدِ جَرَى الْكُنْصِ

والشيء قد يذكر لما يُوجِبُه : وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد . وهو البيت الذي أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب في الشعر . ولي ما هو أكمل منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد . وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد ، وكلاهما في هذه القطعة التي أوردها ، وهي :

مَشُوقٌ مُعْنَى مَا يَنَامُ مُسَهَّدٌ بِخَمَرِ التَّجْنِيَّ مَا يَزَالُ يُعْرَبَدُ
فِي سَاعَةِ يُبْدَى إِلَيْكَ عَجَائِبًا يَمَرُّ وَيَسْتَحِلُّ وَيُذْنِي وَيُيَعَدُ
كَأَنَّ النَّوَى وَالْعَتَبُ وَالْهَجَرُ وَالرُّضَى قَرَانٌ وَأُنْدَادٌ وَنَحْسٌ وَأُسْعَدُ
رَأَى لَغْرَامِي بَعْدَ طَوِيلٍ تَمْنَعُ وَأَصْبَحْتُ مُحْسُودًا وَقَدْ كُنْتُ أَحَدُ
نَعْمًا عَلَى نَوْرٍ مِنَ الرُّوضِ زَاهِرٍ سَقَنَهُ الْغَوَادِي فَهوَ يُثْنِي وَيَحْمَدُ
كَأَنَّ الْحَيَا وَالْمَزْنَ وَالرُّوضِ عَاطِرًا دَمُوعٌ وَأَجْفَانٌ وَخَدٌّ مُورَدُ
وَلَا يَنْكُرُنْ عَلَى مُنْكَرِ قَوْلِي « قَرَانٌ » ، فَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْكَوَاكِبِ يَسْمُونُ التَّقَاءَ
كُوكِبِينَ فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ قَرَانًا .

وَلِي أَيْضًا مَا هُوَ أَنْتُمْ مِنْ هَذَا ، وَهُوَ تَشْبِيهِ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ فِي هَذِهِ
الْقِطْعَةِ ، وَهِيَ :

خَلُوتُ بِهَا وَالرَّاحُ ثَالِثَةٌ لَنَا وَجُنْتُ ظِلَامَ اللَّيْلِ قَدْ مَدَّ وَأَنْبَلَجُ
فَنَاءٌ عَدِمْتُ الْعَيْشَ إِلَّا بِقَرَبِهَا فَهَلْ فِي ابْتِغَاءِ الْعَيْشِ وَيُحْكُ مِنْ حَرْجُ
كَأَنِّي وَهِيَ وَالْكَأْسُ وَالْخَمْرُ وَالْدُّجَى تَرَى وَحْيًا وَالْدَّرُّ وَالْتَبَرُ وَالسَّبَجُ
فَهَذَا أَمْرٌ لَا مَزِيدَ فِيهِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى أَكْثَرِ مِنْهُ . إِذْ لَا يَحْتَمِلُ الْعَرُوضُ
وَلَا بَنِيهِ الْأَسْمَاءُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

وَيَعْرِضُ لِلْمُحِبِّينَ الْقَلْقُوعَ عِنْدَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ :
أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَجَائِهِ لِقَاءَ مَنْ يَحِبُّ فَيَعْرِضُ عِنْدَ ذَلِكَ حَائِلٌ .

• خَيْرٌ :

وَإِنِّي لِأَعْلَمُ بَعْضَ مَنْ كَانَ مُحِبُّوهُ يَعِدُّهُ الزِّيَارَةَ ، فَمَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا جَائِيًا
وَذَاهِبًا لَا يَقْرَبُهُ الْقَرَارُ وَلَا يَبِثُّ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، مُقْبِلًا مُدْبِرًا قَدْ اسْتَخَفَّهُ السَّرُورُ
بَعْدَ رِكَانَةٍ ، وَأَشَاطَهُ بَعْدَ رِزَانَةٍ .

وَلِي فِي مَعْنَى انْتِظَارِ الزِّيَارَةِ :

أَقَمْتُ إِلَى أَنْ جَاءَنِي اللَّيْلُ رَاجِيًا لِقَاءَكَ يَا سُؤْلِي وَيَا غَايَةَ الْأَمَلِ
فَأَيَّاسُنِي الْإِظْلَامُ عَنْكَ وَلَمْ أَكُنْ لِأَيَّاسَ يَوْمًا إِنْ بَدَأَ اللَّيْلُ يَتَصَلُ
وَعِنْدِي دَلِيلٌ لَيْسَ يَكْذِبُ خُبْرُهُ بِأَمَثَالِهِ فِي مُشْكِكِ الْأَمْرِ يُسْتَدَلُّ

لأنك لو رُمْتَ الزبارة لم يكن ظلامٌ ودام النورُ فينا ولم يزل

والثاني عند حادث يحدث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف .
فعند ذلك يشتدُّ القلق حتى توقف على الجلبة ، فإمّا أن يذهب تحمُّله إن رجا
العفو ، وإمّا أن يصير القلق حزناً وأسفاً إن تخوَّفَ المجر .
ويعرض للمُحب الاستكانة لجفاء المحبوب عليه ، وسيأتي مفسراً في بابهِ إن شاء
الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد ، والحُمرة المقطعة ، تغلب عندما يرى من إعراض
محبوبه عنه ورفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصعداء .
وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

جميلُ الصبرِ مُسجونٌ ودمعُ العينِ مُنفوحٌ (٣)

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقربته وخاصته ، حتى يكونوا
أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاءُ من علامات المحب ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هامل
الشئون ، تُجيبه عينه ، وتحضره عبرته إذا شاء . ومنهم جمود العين ، عديم الدمع ،
وأنا منهم .

وكان الأصل في ذلك إدماني أكل الكندر^(٤) لخفقان القلب ، وكان عرض لي في
الصبا ، فإني لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبي يتفطر ويتقطع ، وأحس في قلبي
غُصة أمر من العلم تحول بيني وبين توفية الكلام حقَّ مخارجه ، وتكاد تشوقني النفس
أحياناً . ولا تجيب عيني ألبنة إلا في الندرة بالشئ السير من الدمع .

• خبر :

ولقد أذكرني هذا الفصل : يوماً ودَّعت أنا وأبو بكر محمد بن إسحاق صاحبي

(٣) في الأصل : « ودمع العين مازحة » ، وقد قرره الأستاذ حسن كامل الصيرفي وأخذت بقوله .

(٤) الكندر : ضرب من العلك كان يوضع لقطع البلغم .

أبا عامر محمد بن عامر^(٥) صديقنا . رحمه الله . في سفرته إلى الشرق^(٦) التي لم نره بعدها . فجعل أبو بكر يكي عند وداعه . ويُشد متمثلاً بهذا البيت :
ألا إنَّ عينا لم تُجد يومَ واسطٍ عليك يباقي دمعها لجُمود^(٧)

(٥) أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق المهلبى الإسحاقى ، أورد له الضبي في كتابه « بغية المتلمس » ترجمة مختصرة ، رقم ٥٩ . وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، ورافقه عندما ترك قرطبة بعد أن نهبا البربر ، وسئلنى به أكثر من مرة عبر صفحات الكتاب ، وكان هو الذى وجه إليه ابن حزم رسالته عن فضل أهل الأندلس ، وحفظ لنا المرقى نصها كاملاً في كتابه نفع الطيب ، ج ٤ ص ١٥٤ .

• أما أبو عامر محمد بن عامر ، فثمة احتمال بأنه يعنى أبا عامر محمد بن عبد الله بن يحيى بن أبى عامر ، وقد عرض له الضبي في « البغية » دون تفصيل ، وخصه بالترجمة رقم ١٧١ ، وأشار إلى أن ابن حزم ذكره . ويرى بروفنسال أنه بصدد حفيد المنصور بن أبى عامر ، الابن الوحيد للحاجب العامرى الثانى : المظفر عبد الملك بن أبى عامر ، وحكم من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م ، من زوجته « خيال » ، وقد خلفه عليها بعد موته القاسم بن خمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين فى مالقة وقرطبة إبان عصر ملوك الطوائف ، تقامت على تربية أبى عامر « الذلفاء » ، جدته لأبيه . وكانت له حين سقطت دولة العامرين سبعة أعوام ، فغادر قرطبة سراً إلى سرقسطة ، وأقام فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى . وقفا بعد عاد إلى قرطبة عام ٤١٢ هـ = ١٠٢١ م ، وحاول أن يقيم لنفسه إمارة فى مقاطعتى جيان ورسية ، وتسمى بالاعتصم ، وبعد اضطرابات كثيرة لاذ أخيراً بحصن فى مقاطعة الغرب Algarve ، جنوبى البرتغال الآن ، وهناك مات بالجدري عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م . انظر :

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٣٣ .
- ابن الخطيب : أعمال الأعمال ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، طبعة الرباط .
- محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ص ١٦٠ وما بعدها ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ .

• Seco de Lucena Luis : Los Hammudies senores de Málaga y Algeciras, p. 13 ss., Málaga 1955.

- الباب الرابع : الهامش رقم ١ من هذا الكتاب .
- الباب ٢١ ، الهامش رقم ٨ .
- الباب ٢٩ ، الهامش رقم ١٨ .
- (٦) فى الطبقات العربية « المشرق » ، وصحبها بروفنسال « الشرق » ، أى شرق الأندلس ، وليس المشرق المقابل للمغرب فى مصطلح مؤرخى العصر الوسيط ، وتابعه فى تصحيحه غريسة غوث ، وارتضيت رأيهما ، لأن أبا عامر هذا لم تعرف له أية رحلة إلى المشرق .
- (٧) البيت من قصيدة لأبى عطاء السندى ، واسمه مرزوق ، مولى أسد بن خزيمة ، انظر :
- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ٢ ص ٧٦٦ وما بعدها ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

• تاريخ الطبرى ، ج ٧ ص ٤٥٦ ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، القاهرة - دار المعارف .

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة^(٨) رحمه الله ، ونحن وقوف على ساحل
البحر بمالقة^(٩) ، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف ولا تساعدني عيني ، فقلت نجيباً
لأبي بكر :

وإنَّ امرأً لم يُقنِ حسنَ اضطباره عليك وقد فارقتَه لجليدُ
وفي المذهب الذي عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم ، أولها :
دليل الأسى نارٌ على القلب تَلْفَحُ ودمعٌ على الخدين يَحُمِي وَيَسْفَحُ
إذا كتم المشغوفُ سرَّ ضلوعه فإن دموعَ العين تُبدى وتَفْضَحُ
إذا ما جُفُونُ العين سالتْ شُئُوبُها ففي القلب داءٌ للغرام مُبْرِحُ
ويعرض في الحب سوء الظن ، واتهام كل كلمة من أحدهما ، وتوجيهها إلى
غير وجهها . وهذا أصل العتاب بين المحبين . وإني لأعلم من كان أحسن الناس
ظناً ، وأوسعهم نفساً ، وأكثرهم صبراً ، وأشدَّهم احتمالاً . وأرحبهم صدرأً ، ثم
لا يحتمل ممن يُحب شيئاً . ولا يقع له معه أبسر مخالفة ، حتى يبدى من التعديد
فتونا . ومن سوء الظن وجوها .

وفي ذلك أقول شعراً ، منه :
أسى طَيَّ بِكُلِّ مُحْتَقِرٍ تَأْنِي بِهِ وَالْحَقِيرُ مِنْ حَقَرٍ
كِي لَا يُسْرِ أَصْلُ هَجْرَةٍ وَقَلَّ فَالنَّارُ فِي بَدْءِ أَمْرِهَا شَرَرُ

(٨) يزيد بن عمر ، أو عمرو ، بن هبيرة الفزاري ، عامل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية في
المشرق ، على العراق ، وقد أعياها جعفر المنصور أمره ، فقتل غداراً في واسط ، عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م . انظر :

• المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٩٨ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

(٩) مالقة Malaga : مدينة قديمة ، تقع على البحر الأبيض المتوسط . كانت في العصر الإسلامي آهلة
عامرة متصلة الكروم ، نافذة التجارة ، بها من الصناعات الهامة صناعة الفخار المذهب والزجاج والوشى ، وشهرت
بالتبذير الجيد ولا تزال ، وكانت إلى جانب هذا ميناء هاماً للتصدير والاستيراد ، وحافظت على طابعها هذا دائماً ،
وهي اليوم مركز سياحي كبير ، وبلغ عدد سكانها الآن ٣٢٥ ألفاً تقريباً . ولا تزال قلعتها العربية قائمة على جبل
يطل على البحر . وزرتها أكثر من مرة ، ويربطها بكل من مدينتي سبتة وطنجة على الشاطئ المغربي خط ملاحى ،
وكانت مالقة من بين أواخر المدن التي خسرها المسلمون في الأندلس ، فقد سقطت في يد الكاثوليك عام ١٤٨٧ م .
انظر :

• المقرئ : نفع الطب ، ج ١ ص ١٤٤ و ج ٤ ص ٢٠٥ .

• الحميري : الروض المطار ، ص ١٧٧ - ١٧٩ .

وَأَصْلُ عَظُمِ الْأُمُورِ أَهْوُهَا وَمِنْ صَغِيرِ النَّوَى تَرَى الشَّجَرَ

وترى المُحب ، إذا لم يَتَقْ بِنَقَاءِ طَوِيَّةٍ مَحْبُوبَةٍ لَهُ ، كَثِيرَ التَّحْفِظِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَتَحَفَظُ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، مُتَقَفًّا لِكَلَامِهِ ، مَزِينًا لِحَرَكَاتِهِ وَمِرَامِي طَرَفِهِ ، وَلَا سِوَا إِنْ دُهِيَ بِمُنَجِّنٍ وَبُلَى بِمُعْرِيدٍ .

وَمِنْ آيَاتِهِ مِرَاعَاةُ الْمَحَبِّ لِمَحْبُوبِهِ ، وَحِفْظُهُ لِكُلِّ مَا يَقَعُ مِنْهُ ، وَبَحْثُهُ عَنْ أَخْبَارِهِ حَتَّى لَا تَسْقُطَ عَنْهُ دَقِيقَةٌ وَلَا جَلِيلَةٌ ، وَتَتَّبِعُهُ لِحَرَكَاتِهِ . وَلِعَمْرَى لَقَدْ تَرَى الْبَلِيدَ يَصِيرُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ذَكِيًّا ، وَالْغَافِلَ فَطْنًا .

• خَبر :

وَلَقَدْ كُنْتُ يَوْمًا بِالْمَرْيَةِ ، قَاعِدًا فِي دُكَّانِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ يُونُسَ الطَّيِّيبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ ، وَكَانَ بَصِيرًا بِالْفَرَّاسَةِ مُحَسَّنًا لَهَا ، وَكُنَّا فِي لَمَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ مُجَاهِدُ بْنُ الْحَصِينِ الْقَيْسِيُّ^(١٠) : مَا تَقُولُ فِي هَذَا ؟ وَأَشَارَ إِلَى رَجُلٍ مُتَبَدِّعًا نَاحِيَةً ، اسْمُهُ حَاتِمٌ ، وَيَكْنَى أَبَا الْبَقَاءِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سَاعَةً يَسِيرَةً ثُمَّ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ عَاشِقٌ . فَقَالَ لَهُ : صَدَقْتَ ، فَمَنْ أَيْنَ قُلْتَ هَذَا ؟ قَالَ : لِبَيْتٍ مُفْرَطٍ ظَاهِرٍ عَلَى وَجْهِهِ فَقَطْ دُونَ سَائِرِ حَرَكَاتِهِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ عَاشِقٌ وَلَيْسَ بِمُرِيبٍ .

(١٠) لم أجِدْ فِيهَا بَيْنَ بَدَى مِنَ الْمَصَادِرِ مَا يُلْقِي ضَرْوًا عَلَى شَخْصِيَّتِي إِسْمَاعِيلِ بْنِ يُونُسَ الطَّيِّيبِ ، وَمُجَاهِدِ بْنِ الْحَصِينِ الْقَيْسِيِّ .

باب من أحب في النوم

ولابد لكل حُب من سبب يكون له أصلا ، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه . ليجرى الكلام على نسق ، أو أن يتبدأ أبدا بالسهل والأهون . فمن أسبابه شيء لولا أني شاهدته لم أذكره لغرابته .

هـ خير :

وذلك أني دخلتُ يوما على أبي السري عمار بن زياد صاحبنا ، مولى المؤيد^(١) ، فوجدته مفكرا مهتماً ، فسألته عما به ، فتمنّع ساعة ثم قال : لي أعجوبة ، ما سمعتُ قط . قلت : وما ذاك ؟ قال رأيتُ في نومي الليلة جارية فاستيقظتُ وقد ذهب قلبي فيها ، وهمتُ بها ، وإني لفي أصعب حال من حبها . ولقد بقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهتبه شيء وجداً ، إلى أن عدلته وقلتُ له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد ، هل تعلم من هي ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقليل الرأي ، مُصاب البصيرة ، إذ تحب من لم تره قط ، ولا خلق ولا هو في الدنيا . ولو عشقتَ صورة من صور الحمام^(٢) لكنتَ عندى أعذر ،

(١) المؤيد ، هشام الثاني . حكم مرتين : أولاها من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ م ، والثانية من ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ م ، وللمزيد من أخباره انظر :

• ابن عداري : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٣ وما بعدها .

• أما أبو السري عمار بن زياد فلم أهند له إلى أية ترجمة .

(٢) يشير ابن حزم إلى ملمح جميل من ملامح الحضارة الإسلامية في الأندلس ، فحين فتحه المسلمون ابتقا على التراث الروماني الذي وجدوه ، ويمثل في عدد كبير من التماثيل الجميلة ، وأفادوا منها في تزيين البيوت والحدائق والحمامات الخاصة ، وقد رسم لنا أبو تمام بن رباح الحمام صورة شعرية جميلة ، لتتألم مريم العذراء ، تحمل المسيح بين يديها ، وكان موضوعاً في حمام الشطارة في إشبيلية :

ودمية مرمر قرهي يجيد تناهي في التورد والياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ، ولكن تبتننا بالمحافظ مراض
وقد أورد نفع الطب ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، هذه الأبيات غير منوية لأحد .

فمازلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندي من حديث النفس وأضعافها ، وداخل في باب التمني وتخيل الفكر .

وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

أطلعة الشمس كانت أم هي القمرُ	يا ليتَ شعري من كانت وكيف سرتُ
أو صورةُ الروح أبدتها لي الفكرُ	أظنها العقل أبداه تدبُّره
فقد تحير في إدراكها البصرُ	أو صورةٌ مثلت في النفس من أملِ
أتى بها سبباً في حنق القدرُ	أو لم يكن كلُّ هذا فهي حادثة

٤

باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة ، وهذا أمر يُرْقَى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة ، والهم والوجد ، والسهر على غير الإبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ، ووصف الأخبار ، تأثيراً في النفس ظاهراً . وأن تسمع نغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال .

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أساس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعيناً يقيمها نُصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسه غيرها . قد مال يؤهمه نحوها ، فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يطل بالكلية . وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربّات القصور ، المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحُب النساء فى هذا أثبت من حُب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ويامــــن لامنــــى فى حُبٍّ من لم يــــره طرّفى
لقد أفرطت فى وصفك لى فى الحبّ بالضعف
فقلّ : هل تُعرفُ الجنّة يوماً يسوى الوصف

وأقول شعراً فى استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حلّ جيش الغرام سمعى وهو على مُقلّتى يبدو
وأقول أيضاً فى مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية :

وصفوك لى حتى إذا أبصرت ما وصفوا علمت بأنه هذبان
فالطلّ جلد فارغ وطنينه يرتاع منه ويفرق الإنسان
وفى ضد هذا أقول :

لقد وصفوك لى حتى التقيت فصار الظن حقاً فى العيان

فأوصافُ الجنانِ مُقَصَّراتٌ على التحقيقِ عن قَدْرِ الجنانِ
وإنَّ هذه الأحوالَ لتحدُّثُ بين الأصدقاء والإخوان ، وغنى أحدثُ .

• خبر :

إنه كان بيني وبين رجل من الأشراف ودّ وكيد ، وخطاب كثير ، وما تراءينا قط ، ثم منح الله لي لقاءه ، فما مرت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا منافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن . فقلت في ذلك قطعة ، منها :

أبدلتُ أشخاصنا كرهاً وفرطاً قِلًى كما الصحائف قد يُبدَلُن بالنسخِ
ووقع لي ضد هذا مع أبي عامر بن أبي عامر^(١) رحمة الله عليه . فإني كنت له على كراهة صحيحة وهو لي كذلك . ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تنقيلاً يُحمل إليه غنى وإلى عنه ، ويؤكدُه انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا . ثم وفق الله الاجتماع به فصار لي أودّ الناس ، وصرتُ له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا .

وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

أخ لي كَسْبِيهِ اللقَاءُ وأوجدني فيه عِلْقاً شريفاً
وقد كنتُ أكرهُ منه الجوارَ وما كنتُ أرغبُهُ لي أليفاً
وكان البغيضُ فصّار الحبيبِ وكان الثقيلُ فصّار الخفيفا
وقد كنتُ أذمُّنُ عنه الوجيفَ فصرتُ أديمُ إليه الوجيفا

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبري^(٢) فكان لي صديقاً مدة على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتحدت إلى الآن .

(١) الحديث أكيداً عن ابن لعبد الملك المظفر ، وعرضنا له من قبل ، في الباب الثاني ، الهامش رقم ٥ .
وينبغي أننا بصدد المظفر نفسه فارق السن بينه وبين ابن حزم ، فلقد كان والد ابن حزم والمظفر نفسه في خدمة هشام الثاني المؤيد ، كما يفهم ذلك من كلام المؤلف . انظر أيضاً :

• الباب ٢١ ، الهامش رقم ٨ . • الباب ٢٩ ، الهامش رقم ١٨ .

(٢) ترجم له الضبي في كتابه « البقية » ، الترجمة رقم ١١٠٧ ، وأورد اسمه كاملاً : عبد الواحد (بدلاً من عبد الرحمن) بن محمد بن موهب بن محمد التجيبي ، أبو شاكر ، ويعرف بابن القبري . وقال إنه فقيه محدث أديب خطيب ، نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وأورد له الضبي ، برواية ابن حزم ، آياتاً من الشعر ، وذكر أنه توفي عام ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م وسئلني به فيما بعد مرة أخرى في الباب الثامن والعشرين .

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . وهو ينقسم قسمين ،
فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا ، وهو أن يعشق المرء صورة لا يعلم من هي .
ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً ، وقد عرض هذا لغير واحد .

• خبر :

حدثني صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق^(١) عن ثقة أخبره . سقط عني
اسمه ، وأظنه القاضي ابن الحذاء^(٢) . أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادي^(٣)

(١) عن أبي بكر محمد بن أحمد بن إسحاق ، انظر :

• الباب الثاني ، الماشي رقم ٥ .

(٢) القاضي محمد بن يحيى ، يكتفى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحذاء ، فقيه محدث حافظ . له رحلة
إلى المشرق ، توفي عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، وقد خصه الضبي في كتابه « البقية » بترجمة قصيرة ، انظر :

• الضبي : البقية ، الترجمة رقم ٣١٩ .

• ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١١٠٢ .

(٣) يوسف بن هارون الرمادي الكندي ، يكتفى أبا عمر ، من كبار شعراء الأندلس على أيام المنصور بن
أبي عامر ، وجانب كبير من شعره ضاع ولم يصلنا . والرمادي ليس نسبة إلى موضع بالمغرب كما وهم الحميدى
في كتابه « جذوة المقتبس » وإنما الصورة العربية لكتيبته باللغة الرومانية على أيامه ، فقد كان يلقب بأبي جنيش ،
فنقل إلى الرمادي ، لأن جنيش في رومانية الأندلس ، وفي الأسبانية المعاصرة ، تعني الرماح . توفي سنة ٤١٣ هـ =
١٠٢٢ م . انظر :

• الحميدى : جذوة المقتبس من بغية الملتبس ، ص ٣٤٦ .

• ابن خاقان ، الفتوح : مطمح الأنفس ، ص ٦٩ .

• ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٤٩١ ، القاهرة ١٩٦٦ .

• ابن سعيد : المغرب في حل المغرب ، ج ١ ص ٣٩٢ ، تحقيق شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .

* González Palencia : Historia de la literatura árabe - española , p. 59, 2 ed., Barcelona 1945.

والترجمة العربية له ص ٦٨ .

* Asín Palacios : Abenbázam de Córdoba, Vol. I, p. 53, Madrid 1927.

كان مجتازاً عند باب العطارين^(٤) بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلل حبها جميع أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة^(٥) . فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض بني مروان - رحمهم الله - المنبئة على قبورهم في مقبرة الربض ، خلف النهر ، نظرت منه منفرداً عن الناس ، لا همة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشي ورائي ؟ فأخبرها بعظيم بليته بها . فقالت له : دع عنك هذا ، ولا تطلب فضيحتي ، فلا مطمع لك في البتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل فقال : إني أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مباح لك . فقال لها : يا سيدتي : أجرة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خلوة . قال : ولما أنت فقالت له : علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه . فدع الحال . فقال لها : يا سيدتي ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتني اليوم .

(٤) باب العطارين ، أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة ، ويقع في الجانب الغربي من المدينة ، ومنه يبدأ الطريق المؤدى إلى إشبيلية ، ومن هنا كان يعرف أيضاً باسم باب إشبيلية ، وحوله كانت تقوم تجارة العطور وأدوات الزينة ، فأصبح ملقى النساء من كل أنحاء المدينة ، وعلى مقربة منه كان حي الرقاقين ، الذين يصنعون الرقاق ، ومسجد النخيلة . انظر :
• المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

* Lévi - Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème. siècle, p. 204, Paris 1932.

(٥) القنطرة جسر قديم على الوادي الكبير ، وتقول الرواية إن الإمبراطور الروماني أوجست Auguste (٦٣ ق م - ١٤ م) أمر بإنشائه ، وبقي طوال العصر الإسلامي موضع رعاية الدولة وعنايتها ، وكان أول تجديد أصابه على يد الوالي السبع الخولاني ، بأمر من عمر بن عبد العزيز ، ثم جدد ورمم بعد ذلك في عصور مختلفة أكثر من مرة . وكان يقع عند نهاية الشارع الرئيسي في قرطبة الإسلامية ، ويسمى بالهجة العظمية ، ويبدأ من أعلى المدينة ، عند باب عبد الجبار ، ماراً بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، حتى يصل إلى باب القنطرة ، ويعرف أيضاً باسم باب الوادي ، والوادي تعني النهر في لغة الأندلس ، وباسم باب الجزيرة الخضراء . وكان يصل بين المدينة وربضها الواقع على الضفة الأخرى من النهر ، ويدعى ربض شقندة ، وهو تعريب لاسم اللاتيني Secunda ، وكان يعد من المدينة لامن ضواحيها ، لأنه قديم وسور ، وكان يسكنه العمال وأهل الأسواق ، وفيه اندلعت الثورة على الحكم الأول ، وإلى الربض نسبت ، وقد انتصر فيها الحكم بعد عتاء ، فبنى مكانه ، وأتى على بنيانه ، وتحول في جانب منه إلى مقبرة عرفت باسم مقبرة الربض . انظر :

* Lévi - Provençal : op. cit., p. 205 - 207.

• المقرئ : نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ٢٦ .
• ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٤٣ ، طبعة القاهرة ١٩٦٣ .

في مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له : إما أن تهض أنت وإما أنهض أنا ؟ فقال لها : انهضى في حفظ الله . فهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أسايرها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمرو ، وهو يوسف بن هارون : فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن . فما وقعت لها على خبر ، ولا أدري أسماءاً لحسنها أم أرض بلعها ، وإن في قلبي منها لأخر من الجمر . وهى خلوة التى يتغزل بها فى أشعاره . ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله فى سبيلها إلى سرقسطة^(٦) فى قصة طويلة^(٧) ، ومثل ذلك كثير .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

عَيَّنِي جَنَّتْ فِي قَوَادِي لَوْعَةِ الْفِكْرِ فَارْسَلِ الدَّمْعَ مُقْتَضَاً مِنَ الْبَصْرِ
فَكَيْفَ تُبْصِرُ فَعَلَ الدَّمْعُ مُتَنَصِّفاً مِنْهَا بِإِعْرَاقِهَا فِي دَمْعِهَا الدُّرُ
لَمْ الْقَهَا قَبْلَ إِبْصَارِي فَأَعْرِفَهَا وَأَخْرُ الْعَهْدَ مِنْهَا سَاعَةً النَّظَرِ

(٦) سرقسطة : فى شمال شرق الأندلس . مدينة قديمة جداً ، وقد جعل منها الإمبراطور الرومانى أوجست مستعمرة حرية أعطاها اسمه Caesareaugust ، وحرف على أيام القوط فأصبح Cesarguste ، وصار على أيام المسلمين سرقسطة ، ومنها جاءت التسمية الإسبانية Zaragoza وكانت على أيام المسلمين قاعدة الثغر الأعلى ، وعرفت بعروس الإبرو ، النهر الذى تقع عليه . وسُميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجارها ، أو لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض ، ويصفها الحميرى بأنها «بمندة الأطناب ، واسعة الشوارع ، حسنة الديار والمساكن ، متصلة الجناات والبساتين » . ومن آثارها الإسلامية القائمة حتى يومنا هذا قصر الجعفرية La Jaferia ، وكان مقرّاً لىي هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف ، وقد سقطت المدينة صلحاً فى يد الكاثوليك فى ٤ من رمضان ٥١٢ = ١٩ من ديسمبر ١١١٨ م ، بعد حصار دام تسعة شهور ، وأصبحت حاضرة مملكة أراجون المسيحية ، وتخلقت فيها جاليات إسلامية كبيرة ، حملت اسم المدجنين ، وعاشت فيها ، وفى مقاطعتها ، قرواً طويلة ، وقامت بدور بارز فى نقل الحضارة الإسلامية إلى الغزاة الكاثوليك ، وبخاصة فى مجال المعمار ، وشهرت طويقتهم باسم فن المدجنين . وهى اليوم مدينة كبيرة عامرة ، يبلغ تعدادها قرابة ٣٨٠ ألفاً . انظر :

- الحميرى : الروض المطار ، ص ٩٦ - ٩٨ .
- المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ١٤٣ .
- Cagigas Isidoro de las : Los Mudejares, tomo II, y ss. Madrid 1949.
- Calzada Andrés : Historia de la Arquitectura española. 2 ed., p. 122 ss., Barcelona 1949.

(٧) أورد الضى جانباً من هذه القصة ، فى ترجمته ليوسف ، انظر :

• البنية ، الترجمة رقم ١٤٥١ .

والقسم الثانى مخالف للباب الذى يأتى بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ، ولكن التفاضل يقع فى هذا فى سرعة الفناء وإبطائه . فمن أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لحظة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخْبِرٌ بسرعة السلو ، وشاهد الظرافة والملل . وهكذا فى جميع الأشياء أسرعها نمواً أسرعها فناء . وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً .

• خبر :

إنى لأعلم قتي من أبناء الكتاب رآته امرأة سرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب . وهو مجتاز ، ورأته فى موضع تطلع منه كان فى منزلها ، فعلقته وعَلَّقَها . وتهاديا المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، ولولا أنى لم أقصد فى رسالتى هذه كشف الحيل وذكر المكائد ، لأوردت مما صح عندى أشياء تحير اللبيب ، وتدهش العاقل . أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنه ، وكفانا .

باب من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافة ، وكثير المشاهدة ، ومتأدى الأنس . وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحبك فيه مرَّ الليالي . فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً . وهذا مذهبي . وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسد آدم . وهو فحار . فهاب وجزع : ادخل كرهاً واخرج كرهاً . حدثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه المصفة من إن أحسن من نفسه بابتداء هوى ، أو توجس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور . استعمل الحجر وترك الإلام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويحال بين العبر والتروان . وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه المصفة ، وأنه إذا تمكن منهم لم يحل أبداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبعدُ عن دواعي الحبِّ إلى	رأيتُ الحزمَ من صفةِ الرشيدِ
رأيتُ الحبَّ أوله التصدَّى	يعينك في أواخر الخُدودِ
فينا أنتَ مُغْتَبِطٌ مُخَلَّى	إذا قد صرْتَ في حلقِ القيودِ
كمُغْتَرٌّ بضحضاحٍ قريبِ	فزلَّ فغابَ في غمرِ المدودِ

وإني لأظيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه . ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة . وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً فى حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائي حُبُّ قطِّ إلا مع الزمن الطويل . وبعد ملازمة الشخص لى دهرًا . وأخذى معه فى كل جدٍّ وهزل . وكذلك أنا فى السلو والتوقُّ . فما نسيت ودًّا لى قط ، وإن حنينى إلى كل عهد تقدَّم لى ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئاً قط بعد معرفتى به . ولا أسرع إلى الأنس بشيء قط أول لقائى له . وما رغبت فى الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت .

لا أقول في الألف والإخوان وحدهم . ولكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم . وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ، ولا فارقني الإطراق والانفلاق ، مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادنى ، ولولوع هم ما ينفك بطرقنى ، ولقد نفّص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

مَحَبَّةٌ صَدَقَ لَمْ تَكُنْ بِنْتَ سَاعَةٍ	وَلَا وَرَيْتُ حِينَ ارْتِيَادِ زِنَادُهَا
وَلَكِنْ عَلَى مَهَلٍ سَرَتْ وَتَوَلَّدَتْ	بَطُولُ امْتِرَاجٍ فَاسْتَقَرَّ عِمَادُهَا
فَلَمْ يَدُدْ مِنْهَا عَزْمُهَا وَانْتِقَاضُهَا	وَلَمْ يَنَأْ عَنْهَا مُكْثُهَا وَازْدِيَادُهَا
يُؤَكِّدُ ذَا أَنَا نَرَى كُلَّ نَشَاةٍ	تَمُّ سَرِيحاً عَنْ قَرِيبٍ مَعَادُهَا
وَلَكِنِّي أَرْضُ عَزَازٍ صَلِيْبَةٍ	مَنْعٍ إِلَى كُلِّ الْغُرُوسِ انْقِبَادُهَا
فَمَا نَفَذْتُ مِنْهَا لَدَيْهَا عُرُوفُهَا	فَلَيْسَتْ تُبَالَى أَنْ يَجُودَ عَهَادُهَا

ولا يظن ظان . ولا يتوهم متوهم ، أن كل هذا مخالف لقول المسطر فى صدر الرسالة . أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العلوى ، بل هو مؤكد له ، فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحققتها الأغراض ، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها، وإن كانت لم تحله لكن حالت دونه . فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس . والاستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع . وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدى . واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان . فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة . فإذا غلبت الشهوة ، وتجاوزت هذا الحد ، ووافق لفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يسمى عشقا ، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ، ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا انفا . وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما فى الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب ثان .

وفي ذلك أقول .

كذب المدعى هوى اثنين حتماً مثل ما في الأصول أكذب ماى
ليس في القلب موضع نحيب من ولا أحدث الأمور بشائ
فكما العقل واحد ليس يدرى خالقا غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس بهوى غير فرد مباعد أو مدان
هو في شرعة المودة ذو شر لك بعيد من صحة الإيمان
وكذا الدين واحد مستقيم وكفور من عنده دينان

وإني لأعرف قبي من أهل الجدل والحسب والأدب ، كان يتنازع الجارية وهي سائلة الصدر من حبه . وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلوة شمائل كانت فيه . وقطوب دائم كان لا يفارقه . ولا سيما مع النساء . فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما يصل إليها بالجماع . ويعود ذلك الكره حبا مفرطاً . وكلها زائدا . واستهتارا مكشوفاً . ويتحول الضجر لصحبته ضحراً لفراقه . صحبه هذا الأمر في عدة منهن ، فقال بعض إخواني : فسألته عن ذلك فتبسم نحوى وقال : إذا والله أخبرك . أن أبطأ الناس إنزالاً . تقضى المرأة شهوتها ، وربما ثنت ، وإنزالى وشهوى لم يتنصيا بعد . وما فترت بعدها قط . وإني لأبقي بمتى بعد انقضائها الحين الصالح ، وما لاقى صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدي المعانقة . وبحسب ارتفاع صدرى نزول مؤخرى (١)

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولذ المحبة . إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

(١) نلتقي بالفكرة نفسها ، في أكثر من موضع ، من مؤلفات الشاعر اللاتيني أوفيد (Ovide) (١٣) ق م - (١٧ م) : « غراميات Amours » و « فن الحب L'Art d'Aimer » . وقد ترجمه الدكتور ثروت عكاشة بعنوان : « فن الهوى » و « شفاء الحب Remède de l'amour » انظر :

* Dictionnaire des littératures, vol. III, p. 1943, Paris 1968.
* Gomblanc Ed. : Historia general de la literatura, p. 186 ss., Madrid sin fecha.
* Norsen N. : Lo sexual a través de los anos, en la revista de "Luz", p. 464 ss., Julio 1963, New York.

باب من أحب صفة

لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم - أعزك الله - أن للحُب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً . وأمرأ لا يخالف ، وحداً لا يعصى ، وملكاً لا يتعدى ، وطاعة لا تُصرف ، ونقاداً لا يرد ، وأنه ينقص المِرَر . ويحلُّ المَبْرَم ، ويحلُّ الجامد ، ويحلُّ الثابت ، ويحلُّ الشغاف ، ويحلُّ الممنوع .

ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتهمون في تمييزهم ، ولا يُحاف عليهم سقوط في معرفتهم . ولا اختلال بحسن اختيارهم ، ولا تقصير في حدسهم . قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس . ولا يُرضى في الجمال . فصارت هجراهم ، وعُرْضة لأهوائهم . ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين أو هجر . أو بعض عوارض الحب . وما فارقهم استحسان تلك الصفات . ولا بان عنهم تفضيلها ، على ما هو أفضل منها في الخليفة . ولا مالوا إلى سواها ، بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم . وساقطة لديهم . إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم ، حينئذ منهم إلى من فقدوه ، وألفه لمن صحبوه . وما أقول إن ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً ، واختياراً لا دُخْل فيه . ولا يرون سواه ، ولا يقولون في طيِّ عقدهم بغيره .

وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعضُ الوقص ، فما استحسَن أغيد ولاغيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصر . فما أحبَّ طويلة بعد هذا ، وأعرف أيضاً من هوى جارية في فمها قوه لطيف ، فلقد كان يتقدَّر كل فم صغير ويذمه ، ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصي الحُظوظ في العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطاً في الإدراك ، وأحقهم باسم الفهم والدراية .

وعنى أخبرك :

أتى أحببتُ في صباى جارية لى شقراء الشعر . فما استحسنت من ذلك الوقت
سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، وإنى لأجد هذا
فى أصل تركبى من ذلك الوقت . ولا توثأينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .
وهذا العارض بعينه غرض لأبى رضى الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله .
وأما جماعة خلفاء بنى مروان - رحمهم الله - ولا سيما ولدُ الناصر^(١) منهم ،
فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف . وقد رأيتهم ،
ورأيتنا من رآهم ، من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعاً إلى أمهاتهم ،
حتى قد صار ذلك فيهم خلقه ، حاشى سليمان الظاهر^(٢) رحمة الله ، فإنى رأيته أسود
اللثة واللحية .

وأما الناصر والحكم المستنصر^(٣) ، رضى الله عنهما . فحدثنى الوزير أبى رحمه الله

(١) يشير إلى عبد الرحمن الناصر ، أول وأعظم خليفة أندلسى . وحكم من ٩١٢ إلى ٩٦١ ، انظر :

• المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ٣٣٠ وما بعدها .

• ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ص ١٩٧ وما بعدها .

• ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ص ١٨١ وما بعدها .

(٢) سليمان الظاهر ، ويعرف بالمستعين ، تولى الخلافة خلال فترة قرطبة عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ، وتسمى
حينئذ الظاهر بالله ، إلى جانب لقب المستعين بالله ، ثم أخرج من قرطبة مهزوماً ، وعاد إليها ثانية خليفة عام ١٠١٣ م ،
وتبقى فى الخلافة حتى عام ١٠١٦ م . وكان من أهل العلم والفهم ، أديباً فصيحاً شاعراً ، له رسائل وأشعار بديعة ،
وقد أمدنا ابن الأبار بتفصيلات وافية ودقيقة عن الأحداث التى اضطرب فيها ، انظر :

• ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ٢ ص ٥ وما بعدها .

• ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٩١ .

• المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ٤٠٣ وما بعدها .

• ابن بام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) الحكم المستنصر ، ثانى خلفاء بنى أمية فى قرطبة ، تولى الخلافة بعد أبيه الناصر ٤٥٠ هـ = ٩٦١ م ،
وظل خليفة حتى وفاته فى ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م . وكان حسن السيرة ، جامعاً للعلوم ، محباً لها ، مكرماً لأهلها ، جامعاً
للكتب فى أنواعها ، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . ويحكى ابن حزم ، عن تليد الخصى وكان على خزنة
العلوم : أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها
إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر . انظر :

• المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ٣٦١ وما بعدها .

• ابن سعيد : المغرب ، ج ١ ص ١٨٦ .

• ابن الأبار : الحلة ، ج ١ ص ٢٠٠ .

• Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, tomo I, p. 193, Madrid 1928.

وغيره : أنهما كانا أشقرين أشهلين . وكذلك هشام المؤيد^(٤) . ومحمد المهدي^(٥) ،
وعبد الرحمن المرتضى^(٦) رحمهم الله ، فإنى قد رأيتهم مرارا ، ودخلت عليهم ،
فرأيتهم شقراً شُهلاً ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدري أذلك
استحسان مركَّب في جميعهم ، أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجروا
عليها . وهذا ظاهر في شعر أبى عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير

(٤) هشام المؤيد ، ابن الحكم المستنصر ، تولى الخلافة بعد أبيه ، وكان صبا غراً ، مشتغلاً باللعب والفتك
والخلاعة ، فحجر عليه وزيره المنصور بن أبى عامر ، ولم يترك له سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم ،
وبداً ما يعرف في تاريخ الأندلس بعصر الحجابة ، وفيه كانت القوة الفعلية بيد المنصور ، الذى تسمى بالحاجب ،
وقد تولى هشام الخلافة على قترتين ، من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ . انظر :

- ابن الكردوبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٦٢ ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مدريد ١٩٧١ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣ وما بعدها .
- المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ٣٧٢ .

(٥) المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أول من ثار من بنى أمية الأندلسيين
على الحاجب العامرى الثالث ، عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكانت العامة تسميه شنجول ، أخذها من كلمة
Sancho ، تصغير لفظ Sancho أى شاحج الصغير ، وشاحج ملك نبرة (٩٧٠ - ٩٩٥ م) جده لأمه ، فقد تزوج
المنصور ابن أبى عامر ابنة ملك نبرة ، واعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم عبدة ، وأنجب منها المنصور عبد الرحمن
هذا ، وحاول أن يجعل من نفسه ولى عهد الخليفة ، وقد تزعم المهدي الثورة دفاعاً عن حق بنى أمية في الخلافة ،
وثار لأبيه ، وكان عبد الرحمن قد قُتل ، وتبعته عامة قرطبة ، ودفع بهم إلى مدينة الزاهرة مقر العامرين فاتبوها ، وقتل
عبد الرحمن ، وأعلن نفسه خليفة عام ١٠٠٨ ، ولكن خلافته لم تطل فقد قتل عام ١٠١٠ بعد أحداث أسيفة .
انظر :

- ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥٠ وما بعدها .
- المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ص ٤٠٢ .
- ابن الكردوبوس ، تاريخ الأندلس ص ٦٢ وما بعدها .

(٦) عبد الرحمن بن محمد ، من ولد عبد الرحمن الناصر ، نصب خليفة بشرق الأندلس ، وتسمى المرتضى ،
وقد حاول بمن معه أن يتزعززع قرطبة من القاسم بن حمود ، وهو في طريقه إليها اصطدم بزوى بن زيرى بن مناد ،
أمير غرناطة . وكان ابن حزم مع الخليفة المرتضى في حملته هذه ، وقد اقتتل الفريقان أياماً ، ثم انهزم الأندلسيون ،
بتعمير ابن بسم ، بقيادة المرتضى ، أمام بربر غرناطة بقيادة زوى ، وتفرق جيش المرتضى لا يلقى أحد على أحد ،
تاركين وراءهم زادهم وعنادهم ، وفر المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وهناك اغتاله عصابة مستأجرة ، في ٤٠٨ هـ =
١٠١٨ م . انظر :

- ابن بسم : للخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٩٧ ، وما بعدها . القاهرة
١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

المؤمنين الناصر ، وهو المعروف بالظليق^(٧) . وكان أشعر أهل الأندلس في زمانه ،
وأكثر تغزله فبالشقر . وقد رأيت وجالسته .

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك في سواه فقد وقع من
ذلك . ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين
الحقيقة ، ثم غلب عليه هوى عارض بعد طول بقاءه في الجماعة ، فأخانه عما
عهده نفسه حوالة صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول . وهو يعرف فضل . كان
عليه أولاً . فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلا الأدنى . فأعجب لهذا التغلب الشديد .
والتمسك العظيم ، وهو أصدق المحبة حقاً ، لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم . ويدعى
غريزة لا نقبله . فيزعم أنه يتخير من يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ،
وأجحف بتمييزه . لحال بينه وبين التخيل والارتداد .

وفي ذلك أقول شعراً ، منه .

منهم فقي كان في محبوبه وقص	كأنما العبد في عبيبه جنان
وكان منسبطاً في فضل خيركه	بحجة حقها في القول ثيان
إن المما وبها الأمثال سائرة	لا يُنكر الحسن فيه الدهر إنسان
وقص فليس بها عنقاء واجدة	وهل تزان بطول الجيد بغيران
وأخر كان في محبوبه قوة	يقول حسبي في الأفواه غزلان
وثالث كان في محبوه قصر	يقول إن ذوات الطول غيلان

وأقول أيضاً :

يعيونها عندى بشقرة شعرها	فقلت لم هذا الذي زانها عندي
يعيون لون النور والتبر ضلّة	لأري جهول في الغواية متمد

(٧) ورد الاسم محرفاً في الطبقات العربية على النحو التالي : « . . . في شعر عبد الملك بن مروان » ،
وقد صححناه ، وهو أشهر من أن يخطئ إنسان في كتابه اسمه . ولعرفة الشاعر الظليق ، انظر :
• غريبة غوث : مع شعراء الأندلس والجنبي ، ص ٨٣ وما بعدها ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، مكتبة
روبة ، القاهرة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .

وهل عاب لونَ الترجس الغضَّ عائبُ
 وأبعد خلق الله من كلِّ حكمةٍ
 بهٍ وحيثُ ألوانُ أهلِ جهنَّمِ
 ومُدَّ لاحت الراياتُ سوداً تيقنتُ
 ولونَ النجومِ الزاهراتِ على البُعْدِ
 مُفضَّلُ جِرمٍ فاحمِ اللونَ مُسودَ
 وليسَ بالكِ مُشكِلِ الأهلِ مُحْتَدِ
 نفوسُ الورى أن لا سبيلَ إلى الرُّشدِ

باب التعريض بالقول

ولا بد لكل مطلوب من مدخل إليه ، وسبب يتوصل به نحوه ، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليم الأول جل ثناؤه . فأول ما يستعمل طلاب الوصل ، أو أهل المحبة في كشف ما يجدونه إلى أحبهم التعريض بالقول : إما بإنشاد شعر ، أو بإرسال مثل - أوتعمية بيت ، أو طرح لغز ، أو تمليط كلام .

والناس يختلفون في ذلك على قدر إدراكهم ، وعلى حسب ما يرونه من أحبهم ، من نفار أو أنس أو فطنة أو بلاهة . وإني لأعرف من ابتدأ كشف محبته إلى من كان يحب بأبيات قلها . فهذا وشبهه يتدنى به الطالب للمودة ، فإن رأى أنسا وتسهيلا زاد . وإن يعاين شيئا من هذه الأمور في حين إنشاده لشيء مما ذكرنا ، أو إirاده لبعض المعاني التي حددنا ، فانتظاره الجواب ، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات ، لموقف بين الرجاء واليأس هائل ، وإن كان حيناً قصيراً . ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه .

ومن التعريض بالقول جنس ثان . ولا يكون إلا بعد الاتفاق . ومعرفة المحبة من المحبوب ، فحينئذ يقع التشكي . وعقد المواعيد . والتقرير ، وإحكام المودات بالتعريض ، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غير ما يذهبان إليه ، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام ، على حسب ما يتأدى إلى سمعه . ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كل واحد منهما عن صاحبه ، وأجابه بما لا يفهمه غيرها . إلا من أبد بحس نافذ . وأعين بدكاء . وأمد بتجربة ، ولا سيما إن أحس من معانيهما بشيء . وقلما يغيب عن المتوسم المجيد . فهناك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف قتي وجارية كانا يتحابان ، فأرادها في بعض وصلها على بعض مالا يحمل . فقالت : والله لأشكوكك في الملام عناية ، ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجارية مجلس بعض أكابر الملوك ، وأركان الدولة ، وأجل

رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتَوَقَّى أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفي المجلس مغنيات غيرها ، فلما انتهى الغناء إليها سَوّت عودها واندفعت تغنى بأبيات قديعة ، وهي :

غَزَالٌ قَدْ حَكِيَ بِدَرِّ التَّامِ	كُثْمِسٍ قَدْ تَجَلَّتْ مِنْ غَمَامِ
سَبَى قَلْبِي بِالْحَاظِ مِرَاضِ	وَقَدْ الْغَصْنُ فِي حُسْنِ الْقَوَامِ
خَضَعْتُ خُضُوعَ صَبٍّ مُسْتَكِينِ	لَهُ وَذَلَّلْتُ ذِلَّةَ مُسْتَهَامِ
فَصِلْنِي يَا فَدَيْتُكَ فِي حِلَالِ	فَمَا أَهْوَى وَصَالاً فِي حَرَامِ

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عَنَابٌ وَقَعَ وَشَكَاهُ ظُلْمِ	أَنْتَ مِنْ ظَالِمٍ حَكِيمٍ وَخَصْمِ
تَشَكَّتْ مَا بِهِمَا لَمْ يَدْرِ خَلْقٌ	سِوَى الْمَشْكُومِ مَا كَانَتْ تُسَمَّى

باب الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريض بالقول ، إذا وقع القبول والموافقة . الإشارة بلحظ العين .
وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود . ويبلغ المبلغ العجيب . ويُقطع به ويُتواصل .
ويُعد ويهدد ، ويُشهر ويسيطر ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الأوعاد . وينبه على
الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .
ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده
إلا بالرؤية . ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا بالأقل منه . وأنا واصف ما تيسر من هذه
المعاني :

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة
نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسرنظرها آية الفرح .
والإشارة إلى إبطاقها دليل على التهديد ، وقلب الحدة إلى جهة ما ثم صرفها
بسرعة تنبيه على مُشار إليه .
والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاها سؤال ، وقلب الحدة من وسط العين
إلى المرق بسرعة شاهد المنع ، وترعيد الحدتين من وسط العينين نهي عام . وسائر
ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب
إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة ، وأوعاها عملاً ،
وهي رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادي ، ومرآتها المجلوة التي بها تقف على
الحقائق ، وتميز الصفات وتفهم المحسوسات . وقد قيل ليس المُخبرُ كالمعاني ،
وقد ذكر ذلك أفليمون^(١) صاحبُ الفراسة ، وجعلها معتمدة في الحكم .

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاق شعاعها شعاعاً مجلّوا صافياً ، إما حديداً
مفصولاً أو زجاجاً أو ماء ، أو بعض الحجارة الصافية ، أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ، ذوات

(١) أفليمون Philemon أشهر مؤلف إغريق في علم الفراسة ، وقد ازدهر في القرن الثاني للميلاد .

الرفيف والبصيص واللمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف سائر متنازع كدر ، انعكس شعاعها فأدرك الناظر نفسه ومازها عياناً ، وهو الذى ترى فى المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك . ودليل عيانى على هذا أنك تأخذ مرأتين كبيرتين ، فتمسك إحدهما يمينك خلف رأسك ، والثانية ييسارك قبالة وجهك ، ثم تزويها قليلا حتى يلتقيا بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك ، وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التى خلقتك ، إذ لم تجد منفذا فى التى بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم . وإن كان صالح غلام أبى إسحاق النظام^(٢) خالف فى الإدراك ، فهو قول ساقط لم يوافق عليه أحد .

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكانة ، لأنها نورية لا تدرك الألوان بسواها ، ولا شيء أبعد مرمى ، ولا أنأى غاية منها ، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التى فى الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبُعدها ، وليس ذلك إلا لاتصالها فى طبع خلقها بهذه المرآة ، فهى تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول فى المواضع وتنقل الحركات ، وليس هذا لشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب . ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المصوت قبل سماع الصوت ، وإن تعمدت إدراكهما معاً . وإن كان إدراكهما واحداً لما تقدمت العين السمع^(٣)

(٢) عن النظام ، انظر : الباب الأول ، الهامش رقم ١١ .

(٣) عرض ابن حزم لنظريته فى الرؤية تفصيلاً فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » .

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك ، إذا امتزجا ، المراسلة بالكتب ، وللكتب آيات .
ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب ، وبحلّها في الماء ، وبمحو
أثرها ، فُرب فضيحة كانت بسبب كتاب .
وفي ذلك أقول :

عزيرُ على اليوم قطعُ كتابكمُ ولكنه لم يُلَفَ للودّ قاطِعُ
فأثرتُ أن يَبْقَى ودادُ وينمحي مِدَادُ فإن القرعَ للأصلِ تابع
فكم من كتابٍ فيه مِئَةُ رَبِّه ولم يَدْرِه إِذْ نَمَقَتْهُ الأصابع
وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس .
ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحيان ، إمّا لحضّر في الانسان ، وإمّا لحياء ،
وإمّا لهيبة . نعم ، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب ، وعلم المحب أنه قد وقع
بيده ورآه ، للذة يجدها الحب عجيبة تقوم مقام الرؤية . وإن لرد الجواب والنظر إليه
سروراً يعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعنته .
ولعهدي ببعض أهل المحبة ممن كان بدرى مايقول . ويحسن الوصف ، ويعبر عما في
ضميره بلسانه عبارة جيدة . وينجيد النظر . ويدقق في الحقائق ، لا يبدع المراسلة وهو
ممكن الوصول ، قريب الدار ، أقي المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة . ولقد أخبرتُ عن
بعض السُّقَاط الوُضْعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع
من الاغتلام قبيح . وضرب من الشَّق فاحش .
وأما سقَى الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ، ويُقارضه محبوبه بسقَى
الحبر بالرَّيق .

وفي ذلك أقول :

جوابُ أتاني عن كتابٍ بعثتهُ فسكنَ مُتَاجاً وهَجَّ ساكناً
سقيتُ بدمع العينِ لمّا كتبتهُ فعَالَ مُحِبٌّ ليس في الودّ خائناً

فما زال ماء العين يمحو سُطوره
غدا بدموعي أول الخط بيننا
فيا ماء عيني قد محوت المحاسن
وأضحى بدمعي آخر الخط باثنا

« خبير :

ولقد رأيتُ كتاب المحب إلى محبوبه ، وقد قطع في يده بسكين له ، فسال
الدم ، واستمد منه . وكتب به الكتاب أجمع ، ولقد رأيت الكتاب بعد جُفوفه
فما شككتُ أنه بصُغِ اللك^(١) .

(١) صاغ ابن فرمان هذه الفكرة زجلاً ، وولّقى بها عنده في آخر دور من الرجل رقم ١١٢ من ديوانه :

وكن لرسول قريب الحجاب ،
وإن كان وترضى وترسل كتاب ،
بدمى سطر إليك الجواب ،
ونبرى عظمى مكان القلم .

باب السفير

ويقع في الحب بعد هذا ، بعد حلول الثقة ، وتمام الاستئناس ، إدخال السفير ، ويجب تحييره وارتباده ، واستجادته واستفراجه ، فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعد الله تعالى .

فينبغي أن يكون الرسول ذاهية ، حاذقاً يكتفى بالإشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويحسن من ذات نفسه ، ويضع من عقله ما أغفله باعته ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه ، كأنما كان للأسرار حافظاً ، وللعهد وفياً ، قنوعاً ناصحاً . ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على باعته بمقدار ما نقصه منها . وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

رسولك سيفٌ في يمينك فاستجدْ حُساماً ولا تضربْ به قبل صفِّه

فمن يكُ ذا سيفٍ كهامٍ فُضِّره يعودُ على المعنى منه بجهله

وأكثر ما يستعمل المحبون في إرسالهم إلى من يُحبونه ، إما خاملاً لا يُؤبه له ، ولا يُهتدى للتحفظ منه ، لصباه أولهية رثة أو يذاذة في طلعتة .

وإما جليلاً لا تلحقه الظنن لنسك يظهره ، أولسن عالية قد بلغها . وما أكثر هذا في النساء . ولا سيما ذوات العكاكيز والتسايع والثوين الأحمرين . وإلى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيناً رأينا .

أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبية والحجامة ، والسراقة والدلالة ، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة . والمعلمة والمستخفة ، والصناع في المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشع بها عليه . فكم منبع سهل بهذه الأوصاف ، وعسير يسر ، وبعيد قرب ، وجموح أنس ، وكم داهية دعت الحجب المصونة ، والأسرار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها ، وقلة الثقة بكل واحد ، والسعيد

من وعظ بغيره . وبالضد تميز الأشياء . أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره
ولا أزال عن الجميع ظل العافية^(١) .

• خبير :

وإني لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ، ويُعقد الكتاب في
جناحها ، وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

تَحْيَرَهَا نُوحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّهُ لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نَحْوَهُ بِالْبَشَائِرِ
سَأَوَدَعَهَا كَتَبِي إِلَيْكَ فَهَا كَهَا رَسَائِلَ تُهْدِي فِي قَوَادِمِ طَائِرِ

(١) ترك هذا الباب أثراً واضحاً في الأدب الإسباني ، فرواية لا ثليستينا La Celistina ، أو القوادة ،
لمؤلفها فرناندو دي ريوخاس Fernando de Rojas (١٤٥٣ - ١٥٤١ م) بطلتها عجزت مهمتها التوثيق بين
الرموس في الحرام ، وقد أفاد مؤلفها ، أو مؤلفوها ، من هذا الفصل مباشرة ، أو عن طريق مؤلفات إسبانية أخرى
أفادت من ابن حزم . وسعرض لهذه القضية في كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .